

## البلاغة العربية من القرن الرابع إلى السادس للهجرة بين التطور والاكتمال

*Arabic rhetoric from the fourth to the sixth century AH,  
between development and completion*

ط.د. فاتح بربار<sup>1</sup>

إشراف: أ.د. جميلة قوجيل<sup>II</sup>

|                         |                          |                           |
|-------------------------|--------------------------|---------------------------|
| تاريخ النشر: 2024/12/20 | تاريخ القبول: 2024/07/03 | تاريخ الإرسال: 2023/12/31 |
|-------------------------|--------------------------|---------------------------|

### الملخص:

ارتأينا من خلال هذا المقال الوقوف على أهم مراحل تطور ونضج الدرس البلاغي من القرن الرابع إلى السادس للهجرة محاولين الكشف عن أسرار ومكنوناته ومزيّته عند علماء النقد والأدب والتفسير وكيف أصّل هذا الفكر المتداخل بين هذه العلوم إلى كشف أغوار المادة البلاغية وجعلها مادة حاكمة لما سبق بيانه من علوم، ممّا أدّى إلى نمو المباحث البلاغية لتشهد اكتمالا فيما بعد، متوقفين عند الدور الذي أدّاه علماء تلك المرحلة في نضج الدرس البلاغي واكتماله من خلال دراستنا لإسهامات كل من 'عبد القاهر الجرجاني' الذي استطاع أن يضع علي المعاني والبيان وأبي القاسم الزمخشري " الذي طبق أصول هذه المادة العلمية المحكمة.

الكلمات المفتاحية: البلاغة العربية، علم المعاني، علم البيان، الجرجاني، الزمخشري.

<sup>1</sup> مخبر الدراسات الأدبية والنقدية - جامعة البليدة-02- [Ef.berber@univ-blida2.dz](mailto:Ef.berber@univ-blida2.dz)

<sup>II</sup> مخبر الدراسات الأدبية والنقدية - جامعة البليدة-02- [dj.goudjil@gmail.com](mailto:dj.goudjil@gmail.com)

## Abstract:

*Through this article, we decided to stand on the most important stages of the development and maturity of the rhetorical lesson from the fourth to the sixth century AH, trying to uncover its secrets, its contents and its advantages for scholars of criticism, literature and interpretation, and how this overlapping thought between these sciences led to revealing the depths of the rhetorical material and making it a governing material for what has been previously explained. Sciences, which led to the growth of rhetorical investigations to witness completion later, stopping at the role that scholars of that stage played in the maturity and completion of the rhetorical lesson through our study of the contributions of each of 'Abd al-Qaher al-Jurjani', who was able to put the science of meanings and the statement, and 'Abi al-Qasim al-Zamakhshari Who applied the origins of this scientific article.*

**Key words:** Arabic rhetoric 'Semantics 'Statement science 'Jurjani ' Zamakhshari.

**المؤلف المرسل: فاتح بربر** [Ef.berber@univ-blida2.dz](mailto:Ef.berber@univ-blida2.dz)

\*\*\* \*\*

## مقدمة:

إنَّ الحديث عن البلاغة العربية يقودنا إلى الحديث عن تسلسل وتتابع زمني بين العصور التي مر بها تاريخ أدبنا العربي، بدءاً من العصر الجاهلي الذي كانت المناظرات والمجالس الأدبية والأسواق تمثل فيه عماد البلاغة، باعتبار أن الفحول من الشعراء يلقون أسماعهم ليميزوا بين السَّتوق والحسن من أضراب الشَّعر، فيرفعون من شأن المجيد ويصححون هَنَات من لم يرق إلى جمال أدبي وحسن بلاغي، ولم تكن البلاغة إذ ذك وليدة قوانين وأسس بل وفق معايير انطباعية وأذواق أكسبتهم إيَّاهها البيئة العربية البدويَّة، وبلغ الأمر من فصاحة العرب أن تفاخروا بها ونظموا السَّموط الجياد في ذلك إلى أن أنزل الله عليهم كلامه المعجز الفصيح الَّذي عرف بأعلى مراتب النظم والبيان، فأسكت البلغاء منهم و تحدى أولهم وآخرهم أن يأتوا بسورة أو آية مثله فما اهتمدوا إلى ذلك سبيلا، ثم عكف العلماء بعد نزول القرآن إلى تتبعه والغور في مكنون إعجازه وجميل

بيانه والمحكم والمتشابه منه واستخراج درره، فجاءت المراحل الأولى من الدرس البلاغي غير مكتملة ولم يحمل طابع الاستقلالية والتفصيل فيها، بل كان مترامي الأطراف بين ألسنة البلغاء والشعراء والنقاد إذ كان الاهتمام بمسائل الفصاحة والبلاغة والبيان أشد الاهتمام بسبب القرآن الكريم وحاجة الناس إلى تفسيره وبيان أوجه الإعجاز منه ولم يستتب الأمر إلا عن طريق الجماليات البلاغية فظهرت كتب التفسير الباحثة في أوجه الإعجاز ومعاني التراكيب القرآنية ومنها " مجاز القرآن لأبي عبيدة، ومعاني القرآن للفراء وغيرها من الكتب المتناولة للموضوع، وحال رجوعنا إلى القرن الرابع للهجرة نجد أنّ الدرس البلاغي وضع قواعده وأسسها ودرسه أصحاب التفسير والنحو والأدب والتقد فأضى غاية لكل أديب وناقد ومفسر إذ أن كل علم ممّا سلف ذكره يحتاج إلى البلاغة كونها الكاشف عن المعاني فعرف بطابع الشمولية، ثم اكتمل هذا العلم حتى أرسيت قواعده وأحكم بنيانه على يد الامام الجرجاني وجاء بعده الزمخشري ليحكم هذا الصرح العلمي ويمتن أصوله التطبيقية، ووفق هذا المسار جاء موضوعنا موسوما بـ "البلاغة العربية من القرن الرابع إلى السادس للهجرة بين التطور والاكتمال".

ومن خلال حديثنا عن هذا الموضوع وضعنا إشكالية مفادها، بالدور الذي أدّاه الدرس البلاغي قبل استقلاليته عن علوم التفسير والتقد والأدب؟ وكيف استطاع الجرجاني أن يضع الدرس البلاغي في حيز الاستقلالية والتّنظير؟ وما الإضافات التي قدّمها الزّمخشري لعلمي المعاني والبيان؟ وللإجابة على هذه التساؤلات وضعنا خطة نسير عليها متكونة من عنوانين رئيسيين أما الأول "تطور البلاغة العربية في القرن الرابع واتّضح أصولها" ويحتوي على فرعين الأول "دراسات علماء النقد والأدب وفق المعايير البلاغية" والثاني "دراسات المتكلمين والمفسرين وفق المعايير البلاغية" أما العنوان الثاني فهو "نضج وازدهار الكتابات البلاغية في القرن الخامس والسادس" ويحتوي على فرعين أحدهما "التأسيس العملي لعلم البلاغة وفق آراء عبد القاهر الجرجاني" والثاني "الزمخشري وإضافاته البلاغية في علمي المعاني والبيان" وختم المقال بخاتمة تم فيها تناول أهم نتائج البحث.

## 1- تطور البلاغة العربية في القرن الرابع واتضح أصولها:

إن المتتبع لمسار الدرس البلاغي خلال القرن الرابع الهجري يجده قد ورد متناثر المسائل في مصنفات النقاد تارة وفي فنون الأدباء تارة أخرى وبين ثنايا مسائل التفسير في العديد من الآيات والسور القرآنية ليدل ذلك على أنّ طابع الاشتراكية سمة بارزة لدى العلماء في تلك المرحلة في الدراسات البلاغية وقد حاولنا توضيح هذا الترابط فأوردناها على النحو الآتي:

### 1-1 دراسات علماء النّقد والأدب وفق المعايير البلاغية:

إنّ كل دارس للتراث العربي يجد ترابطاً وتداخلاً بين مختلف فنونه وعلومه ومن أهم العلوم المتداخلة الأطراف، المشتركة في كثير من الأهداف، البلاغة والنّقد إذ بينهما علاقة وطيدة كعلاقة الجسد بالروح، وكلاهما يحتاج إلى الآخر حاجة الإنسان إلى الطعام والشراب، فلا يمكن أن ينفصم أحدهما عن الآخر فالأحكام النقدية كثيراً ما تحتاج إلى إضاءات من الجماليات البلاغية، إذ هي جزء من أجزاء دراستها.

لكن بالرجوع إلى ما وصلنا من التراث النقدي والبلاغي نجد أنّ البلاغة كعلم من العلوم القائمة متأخرة الظهور والتنظير خلافاً للنّقد الذي يمكن القول أنّ أولياته ظهرت مع ظهور الشعر إمّا أحكاماً يصدرها الشعراء أنفسهم أو يصدرها شعراء آخرون يحكمون على نتاج غيرهم الشعري يأخذون دور الحكام، وقد ظهرت البلاغة كعلم قائم بذاته لما احتاج الناس إلى تفسير آية الرحمن، واستخراج درر البيان، والكشف عن مكنونات اللسان، لأننا نجدها أهم وسيلة من الوسائل المعتمدة في إصدار الأحكام فيمكن القول أنّ النّقد يبدأ حيث تنتهي البلاغة فلها مزيد فضل وكما يقول أبو هلال العسكري: "ولهذا العلم فضائل مشهورة، ومناقب معروفة؛ منها أنّ صاحب العربية إذا أخلّ بطلبه...، عقى على جميع محاسنه، وعمى سائر فضائله؛ لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيّد، وآخر رديء؛ ولفظ حسن، وآخر قبيح؛ وشعر نادر، وآخر بارد، بان جهله، وظهر نقصه"<sup>1</sup>.

وبتتبع العلماء لمصادر البلاغة الأول نجد أن كتاب 'البديع' لابن المعتز من بين الدراسات الأولى التي أظهرت الفنون البلاغية المختلفة مستقلة وتتابع الدراسات في ذلك وكان للنقد صلة وثيقة بالبلاغة العربية و من أشهر المؤلفات ما ظهر في القرن الرابع

الهجري حيث " امتزجت البلاغة فيها بالنقد واتخذت كثيرا من الأمور البلاغية فيها مقاييس ينقد الأدب على أساس منها، يحكم له بالجودة إن كانت جيدة، ويحكم عليه بالرداءة إن كانت رديئة، وذلك كما في كتاب نقد الشعر لقدامه بن جعفر (337هـ) وكتاب الموازنة بين الطائيين للآمدي (371هـ) وكتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني (392هـ) وكتاب الصناعتين للعسكري (395هـ)<sup>2</sup>، وغير ذلك من المؤلفات النقدية التي اتخذت من الألفاظ و المعاني وحسن توظيف صنوف البديع معيارا للحكم على الجودة، كما دار الكلام مهارات الشعراء وطرق تأديتهم للبيان والمعاني والبديع والحدق في اختيار العبارة.

فبالرجوع إلى الكتب النقدية في القرن الرابع الهجري نجد أنّ أصحابها طرّقوا مباحث البلاغة كمقاييس على الأحكام النقدية باعتبار أن البلاغة ممحصّة للكلام وفائدتها تمييز الفصيح من غيره والحسن من الأحسن كما يقول أبو هلال العسكري "وقد علمنا أنّ الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها، وتحيرت عقولهم فيها، وإنما يعرف إعجازه من جهة عجز العرب عنه، وقصورهم عن بلوغ غايته، في حسنه وبراعته، وسلاسته ونصاعته"<sup>3</sup>، كما أنّ ما سبق بيانه من أبي هلال يقع على الشعور وعلى النثر وعلى كل كلام عربي، فتكون البلاغة حينئذ درة من درر النقد والفحص، وأهم جانب يستعان به في الدراسة، ولذا نلاحظ تحول التّقد إلى بلاغة خاصّة في المصنّفات النّقدية الّتي جاءت بعد أبي هلال العسكري، وهنا يمكن القول إنّ البلاغة العربية لا يمكن أن تختفي من قاموس أي ناقد لأنّها وسيلة إلزامية ومعيار من معايير الحكم على العمل الأدبي.

وظهور الكتب النقدية وفق المناهج البلاغية قد هيأته الظروف المحيطة، "إذ كان في القرن الثالث الهجري صراع مازال يشدّد حتى استحکم بين فئتين أنصار الشعر: فئة محافظة ترى البلاغة والجمال في الشعر القديم، بعموده وصوره وأخيلته ووضوحه وبساطته، وفئة تأثرت بثقافات وافدة كالفلسفة والمنطق، ترى البلاغة والجمال فيما أنشأه المولدون والمحدثون من أمثال بشار بن برد وأبي نواس ومسلم بن الوليد وأبي تمام،

واشتدت الخصومة بين أنصار الفريقين كما اشتدت بعد قرن من الزمان بين طائفتين آخرين طائفة تناصر أبا الطيب المتنبي وتعجب بشعره، وطائفة تهمه وترذل شعره<sup>4</sup>، فظهور هذه الصراعات الأدبية ولّد لنا تيارا نقديا يعتمد على القواعد البلاغية في استخراج الأحكام الجمالية وتفضيل أحد الأطراف على الآخر، فنشاط حركة النقد الأدبي كان له دور بارز في المنافسات الأدبية ومن أمثلة ما أُلّف في ذلك كتاب 'الموازنة بين الطائيين' للآمدي وكتاب 'الموازنة بين المتنبي وخصومه' للقاضي الجرجاني وكتاب 'عيار الشعر' لابن طباطبا 'ونقد الشعر' لقدامة بن جعفر.

## 2-1 دراسات المتكلمين والمفسرين وفق المعايير البلاغية:

أنزل الله عزّ وجل كتابه الموسوم بالبلاغة والفصاحة والإعجاز والبيان فأضحى معجزة أسكتت البلغاء والأدباء والشعراء وتحدى الله به العرب والعجم فقال تعالى ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [سورة الاسراء الآية 88]، ولذا أولى العلماء من أهل النحو والبلاغة أهمية كبرى لدراسة القرآن الكريم والأخذ من مكنونات بيانه كيف لا وهو الحجة الأولى لأهل العربية لأنه كلام رب العالمين، وليست فائدة البلاغة تحسين الكلام وتجويده وانتخاب درره وتقويه معانيه فحسب بل فهم مكنونات الخطاب الربّاني والإعجاز اللّغوي والقرآني غاية منشودة في هذا العلم وكما يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور "الخوض في وجه إعجاز القرآن لم يزل شغل أهل البلاغة الشّاغل وموردها للمعلول والناهل ولقد سبق أن أُلّف علم البلاغة مشتملا على نماذج من وجوه إعجازه، والتفرقة بين حقيقه ومجازه إلّا أنّه باحث عن كل خصائص الكلام العربي البليغ ليكون معيارا للنقد أو آلة للصنع، ثمّ ليظهر من جراء ذلك كيف تفوق القرآن على كل كلام بليغ بما توفر فيه من الخصائص التي لا تجتمع في كلام آخر للبلغاء حتى عجز السّابقون واللاحقون منهم عن الاتيان بمثله"<sup>5</sup>، وإذا كانت جل الدّراسات البلاغية المستقلة يغلب عليها التقعيد والتنظير لعلم البلاغة فإن علم التفسير مزّيته تكمن في التطبيق واستخراج المكنونات من الخطاب القرآني باعتباره مادة البلاغة ومحورها، ولذا أولى سلفنا من علماء التفسير مباحث جليلة تتناول إعجاز القرآن وبلاغته وفضله على كلام العرب، ويعتبر كتاب "مجاز القرآن" لأبي

عبيدة معمر بن المثنى من الدراسات القرآنية السبّاقة إلى الجمع بين التفسير والبلاغة ثم تتابعت المصنّفات واشتهرت في القرن الرابع ومن أمثلة المؤلفين والمؤلفات في ذلك القرن "تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين" ونجده في مقدمة مؤلفه يشترط الما ما بجوانب البلاغة والعربية للمفسّر إذ يقول "ولا يعرف القرآن إلا من عرف اثنتي عشرة خصلة- وذكر منها - التقديم والتأخير، والإضمار والعربية"<sup>6</sup>، كما نجد السمرقندي من خلال تفسيره 'بحر العلوم' يتناول قضايا بلاغية كالاستعارة والمجاز والتقديم والتأخير والكنائية، وغير ذلك من المصنّفات الجامعة بين التفسير والبلاغة لأن الوقوف على أسرار الكلام الرباني لا يتأتى إلا بالوقوف على فصاحة الألفاظ وحسن التراكيب وتجانس المعاني وكما يقول الخطّابي "واعلم أنّ القرآن إنّما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التّأليف مضمناً أصحّ المعاني، من توحيد له عزّت قدرته، وتنزيه له في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان بمنهاج عبادته؛ وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساوئها، واضعاً كل شيءٍ منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق، ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قُوى البشر، ولا تبلغه قدرهم"<sup>7</sup> ولذا لم يستطع العرب أن يجاروا التحدي والإعجاز القائم على الإتيان بمثله أو سورة منه أو حتى آية من مثله فعجزوا عن ذلك وضاعت حيلهم حتى أقروا بحلاوته وطلاوته وجميل بيانه.

#### 1-2-1 دور علم الكلام والفرق الإسلامية في تنشيط البحث البلاغي:

نشأ الدرس البلاغي بين أحضان علوم مختلفة ومن بين الذين أرسوا قواعده علماء الكلام والفرق الإسلامية - خاصة المعتزلة - وقد كان لهم الدور الفعّال في تنشيط الدرس البلاغي من خلال الجدل والمناظرات والاعتماد على العقل والفلسفة في تقوية الحجّة، وأدّى ذلك إلى ميلاد مدرسة بلاغية تهتم بذلك وذلك أن البلاغة سارت في اتجاهين ومنهما اتّجاه المتكلمين، وقد أشار إلى وجود هذا الاتجاه أبو هلال في قوله: "وليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين، وإنما قصدت فيه مقصد صنّاع الكلام من الشعراء والكتاب"<sup>8</sup>.

ومن أمثلة الذين طرّقوا مباحث البلاغة من هذا الاتجاه نجد الرماني (382هـ) من خلال كتابه 'النكت في إعجاز القرآن' وقد وقف على المعاني البلاغية في القرآن الكريم وأوجه الإعجاز منها وذكر أقسام البلاغة في ذلك وأنها لا تخرج على عشرة أقسام "الإيجاز، التشبيه، الاستعارة، التلاؤم، الفواصل، التجانس، التصريف، التضمن، المبالغة، حسن البيان"<sup>9</sup>، ومثل لكل قسم من الأقسام وفصل فيه فذكر أن "الإيجاز على قسمين: إيجاز بالحذف وإيجاز بالقصر ومثال الأول قوله تعالى ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [سورة الزمر الآية 83]، فأراد بذلك حصولهم على النعيم الدائم المستمر الذي لا ينقطع ولا يكدر فصار الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب فيه كل مذهب"<sup>10</sup>، ثم إنّه وقف على تفسير ومعاني بعض الآي القرآني ممثلاً لكل قسم من أقسام البلاغة التي ذكرها، فجاء مؤلفه مجموعة من الدّرر والقواعد البلاغية المنتخبة آخذة من تطبيق على القرآن الكريم.

كما نجد الباقلاني من خلال كتابه 'إعجاز القرآن' يقف على قضايا البلاغة عارضاً أشعار كبار الشعراء وخطب الخطباء في الجاهلية أو غيرها ليدل على قمة نضجه البلاغي وجودة انتخابه للفوائد وحسن استعمالها، وكلّ موضع ذكره من كلام العرب شعراً ونثراً "قد وُجد في القرآن في بابه ما ليس عليه مزيد في البلاغة وعجيب في النظم"<sup>11</sup> ومن الذين سلكوا هذا المذهب 'القاضي عبد الجبار' الذي أخضع دلالة القرآن كلّها لدلالة العقل وذلك جليّ في مؤلفه 'المغني في أبواب التّوحيد والعدل'. وأمّا دراسات الفرق الإسلامية واهتمامهم بعلم البلاغة فكان بسبب صراعاتهم العقدية وتفسيراتهم المتباينة للنصوص القرآنية فجعلوا من البلاغة مسرحاً للصراع ومن ذلك "اختلافهم حول رؤية الله سبحانه، فالآيات القرآنية التي يرد فيها ما يدلّ ظاهره على خلاف ما تعتقده الجماعة ترى رجالها يجتهدون في صرف الأسلوب عن ظاهره، والبحث له عن توجيه آخر، فالمعتزلة مثلاً يصرفون القول عن ظاهره في قوله تعالى في حكاية مقالة سيدنا موسى عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [سورة الأعراف الآية 143]، كما يجتهدون في صرف الاسناد عن ظاهره في مثل قوله تعالى ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾

[سورة البقرة الآية 7]، ولهذا خاض أهل الفرق في مسائل المجاز والكناية والحذف والتقديم وكثير من فنون هذا العلم<sup>12</sup>.

## 2- نضج وازدهار الكتابات البلاغية في القرن الخامس والسادس للهجرة:

يعتبر القرن الخامس والسادس للهجرة محطة هامة في تاريخ علم البلاغة العربي، لأنها المحطة التاريخية التي قُعدت فيها أصول علم البلاغة خاصة علمي المعاني والبيان، وكان الرائد في ذلك شيخ البلاغيين الإمام عبد القاهر الجرجاني وقد كان محصيا لآراء من سبقه مخرجا الدراسات البلاغية المتناثرة إلى مرحلة التأسيس العملي لعلم البلاغة من خلال كتابيه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" وقد عرف الامام الجرجاني بنظرية النظم التي أزالته وأبطلت دعاوى 'الصرفة' في القرآن وبين أن الإعجاز في النظم، أما الزمخشري فقد استفاد من التّفهيمات التي وضعها الجرجاني وأخرجها إلى ضوء التّطبيق من خلال كتابه "الكشاف عن غوامض التنزيل" فكان مؤلفه في التفسير درة من درر البلاغة يرجع إليه كلّ بلاغي ومفسر وكاشف عن أوجه الإعجاز في الكلام الرباني .

### 1-2 التأسيس العملي لعلم البلاغة وفق آراء عبد القاهر الجرجاني:

#### 1-1-2 إسهامات عبد القاهر الجرجاني وأسبقية في فنون البلاغة:

يعدّ عبد القاهر الجرجاني واضع علم البلاغة وإن كانت هناك دراسات وتجليات لهذا العلم عند الجاحظ وابن دريد وأبي هلال وغيرهم لكنها لم تصل درجة التفصيل والتأصيل وكما يقول الجرجاني "واعلم أنك لا تشفي الغلة، ولا تنتهي إلى ثلج اليقين، حتى تتجاوز حدّ العلم بالشيء مجملا إلى العلم به تفصيلا"<sup>13</sup> فلم يصل من قبله إلى درجة التفصيل والتأصيل بالقدر الذي وصل إليه الجرجاني.

وقد حكم له بالأسبقية غير واحد من علماء هذا الفن ومنهم صاحب الطراز لأسرار البلاغة إذ يقول "وأول من أسس من هذا العلم قواعده، الشّيخ العالم النّحرير علم المحققين عبد القاهر الجرجاني"<sup>14</sup>. فبين العلوي أنّ الجرجاني فتح أبواب هذا العلم وأعلى بنيانه، وبين عظيم فوائده، ودرر عوائده على الفرد في بيانه وعلى الشاعر في تبيانه وعلى المفسر في استخراج الأحكام من كلام ربّ العالمين.

## 2-1-2 اسهامات الجرجاني وأسبقيته في علم المعاني:

يعدّ الجرجاني رائد علم المعاني وإن لم يسمه بهذه التسمية فالذين جاؤوا بعده لم يضيفوا إلى علم المعاني شيئاً ذا بال.

وقد أراد الجرجاني الكشف عن أسرار هذا العلم حتى يقع في أيدي متعلميه سهل المأخذ، كثير العطاء، خالياً من التعقيد المخل، موصلاً بلاغة الكلام الربّاني والعربي في أحسن حلله، مستخرجاً منه أجل نكته، مبيناً بلاغة التراكيب مفصّحاً عن جماليات النظم، وقد وصف نفسه حال بدايته طلب هذا العلم إذ يجده مغلق الطريق، شديد المأخذ، قد أدغلت معانيه وأغلقت، وصدّت أبوابه فجاء بكتابه "دلائل الإعجاز" من أجل الايضاح والافصاح ووضع الأشياء موضعها والكشف عمّا خفي والتبس فيها فنجدته يقول "ولم أزل منذ خدمتُ العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى "الفصاحة"، و"البلاغة" و"البيان" و"البراعة"، وفي بيان المغزى من هذه العبارات، وتفسير المراد بها، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء، والإشارة في خفاء، وبعضه كالتنبّيه على مكان الخبيء ليطلب، وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج عنه، وكما يفتح لك الطريق إلى المطلوب لتسلّكه، وتوضع لك القاعدة لتبني عليها"<sup>15</sup>.

## 2-1-3 منزلة النحو والشعر في بلاغة الكلام واعجاز القرآن عند الجرجاني:

يعتبر النحو والشعر أصلين قام عليهما علم الشيخ وقد ذمّ الجرجاني من أراد الفصل بين اعجاز القرآن وبلاغته وبين الشعر العربي، لأنه وجد صنفاً يرى الشعر مجرد ملحّة أو فكاهة أو تنويع في الكلام أو غير ذلك من أوجه التنميق فيه، جاهلاً أصول الحجة البلاغية التي قام عليها الشعر فالشعر هو ديوان العرب وحامل علمهم ومنبع ثقافتهم وكما يقول عمر -رضي الله عنه- "كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه" ولذا أولاه الجرجاني عناية فائقة لما فيه من الفوائد البديعية والدرر البلاغية وحسن التناسق العربي.

كما أن الجرجاني "في بحثه عن وجوه الإعجاز في الخطاب القرآني لا يتوانى في التوسل بالشعر والقوانين الأساسية التي تحكمه باعتباره نصّاً لغوياً له من المكانة ما له في البيئة والثقافة العربيتين، فهو ميدان الفصاحة والبيان"<sup>16</sup>.

كما أنه اعتبر احتقار النحو والزهد فيه واستصعاب مسأله واستصغار دوره والجهل بأحكامه أشنع صنيع، وأعظم جناية على لغة العرب وأكبر صدّ عن البلاغة القرآنية فنجدّه يقول "ذاك لأنهم لا يجدون بُدًّا من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه، إذا كان قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، فليت شعري ما عذر من تهاون به وزهد فيه"<sup>17</sup> ففي ذلك حجة بالغة وبينه قاطعة أنّ النحو العربي لبنة بناء فلا يمكن الاستغناء عنه، بل الاعراب هو المفصح عن المعاني فمن حرمه حرم الفهم الصحيح.

فالجرجاني علم مكانة علم النحو الذي استقى معينه من إمامه سيبويه إذ يعتبره أعلم الناس بالنحو، كما علم مكانة علم الشعر الذي كان شيخه وإمامه فيه الجاحظ إذ يعتبره أكبر الأدباء دراية به ووقوفه على العلمين لأنهما لبّ البلاغة وأصلها "فالنحو والشعر هما العلمان اللذان استخرج منهما هذا العلم، لأن الشعر كما قال هو معدن البلاغة، والنحو هو المناسب لها الذي ينمّيها إلى أصولها، وهذه عبارته ومعناها أنه هو الذي يدلّ على موطن البلاغة في العبارة فيقول : إن سبب أن راقك هذا البيت، أن فيه لفظاً قدّم على لفظ، أو فيه حذفاً صار به الشاعر أنطق ما يكون إذا لم ينطق إلى آخر"<sup>18</sup>، ومن خلال جمعه بين العلمين أخرج لنا الجرجاني دُرّة في البلاغة والإعجاز وأبدع في نظريته المعروفة بالنظم .

#### 4-1-2 أهم الافكار التي قدّمها الجرجاني في علم المعاني:

أهم فكرة جاء بها الجرجاني هي النّظم أو التّعالق وقد عرّفه بتعريفات في مواضع متفرقة من كتابه "دلائل الإعجاز" تندرج ضمن معنى واحد فقال "معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض"<sup>19</sup> ثمّ أكمل قائلاً في موضع آخر "والوجوه في تعلق الكلم بعضها ببعض، وهي كما تراها معاني النحو"<sup>20</sup>.

ويقول في موضع آخر مبيناً أن النظم هو توخي معاني علم النحو "اعلم أن ليس النظم" إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو"<sup>21</sup>.

ثم يقول في موضع آخر "واعلم أنه لا معنى للنظم غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم، ومثل لذلك بقول أبي تمام:

لُعَابُ الْأَفَاعِي الْقَاتِلَاتِ لُعَابُهُ وَأُزْيُ الْجَنَى اشْتَارَتْهُ أَيْدٍ عَوَاسِلُ\*<sup>22</sup>

فالغرض أن يشبّه مداد قلمه بلعاب الأفاعي، وهذا المعنى إنما يكون إذا كان "لعابه" مبتدأ، و"لعاب الأفاعي" خبراً<sup>23</sup> فبين بأنه من حمل البيت على ظاهره اعتبر أن "لعاب" مبتدأ و"لعابه" خبر وهذا لا يتناسب مع التشبيه الذي قصده بل لا يتأتى ذلك إلا بالإعراب السابق.

فالجرجاني أولى مسألة النظم أهمية بالغة بل اعتبره أساس علم المعاني فجمع بين علم النحو والمعاني القائمة في الصدور فالبلاغة عنده "كلّها على أمر واحد هو دراسة التلاؤم والتوافق بين العبارة بكلّ مكوناتها والمعاني القائمة في النفس بكلّ خفاياها، وأن هذا الربط بين ظاهر الكلام والمتمثل في الصياغة والنسج والتصوير، وبين المعاني القائمة في الصدور جعله عبد القاهر رأس تعريف النظم، لأن النظم عنده مؤسس على شقين: الشق الأول هو توخي معاني النحو، والشق الثاني هو المعاني القائمة في الصدور، والدرس البلاغي قائم على مدى الاصابة في التوخي الذي ليس له إلا رسالة واحدة هي الإبانة عن المعاني القائمة في النفوس والمعاني القائمة في النفوس والاصابة في التوخي هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال"<sup>24</sup> والدرس البلاغي قائم على ذلك لأن البلاغة في مفهومها عند الكثير من البلاغيين "مراعاة المقام لمقتضى الحال" ثم إن حديثه في بداية كتابه 'الدلائل' عن الفصاحة والبلاغة في الكلام تأكيد على الأهمية التي يولمها للنظم وما حمله من شقين بلاغي ونحوي وأنّ الاعجاز ليس في الألفاظ وحدها ولا في المعاني وحدها بل تراكيب الكلام وصياغتها وأساليها والتي هي النظم وهي جوهر الفصاحة و البلاغة، وأن المعاني القائمة في النفوس لا يكشف عنها إلا النظم.

## 5-1-2 إضافات الجرجاني في علم البيان:

يعتبر كتاب أسرار البلاغة في علم البيان كتابا يحمل لمسة فنية تجعل من الجرجاني أحد السباقين إلى ترتيب مسائل هذا العلم، ولقد ذكر الامام عبد القاهر في معرض حديثه عن التمثيل والاستعارة سبب بحثه في هذه المسائل والاضافات التي قدّمها

فقال "واعلم أن هذه الأمور التي قصدتُ البحث عنها أمور كائناتها معروفة مجهولة، وذلك أنها معروفة على الجملة، لا ينكر قيامها في نفوس العارفين ذوق الكلام، والمتمهّرين في فصل جيده من رديئه، ومجهولةٌ من حيث لم يتفق فيها أوضاعٌ تجري مجرى القوانين التي يُرجع إليها، حتى تُعلم علم اليقين غير الموهوم".<sup>25</sup>

فإضافته تكمن في تأسيس قوانين يرجع إليها كل لغوي أو بلاغي أو نقدي أو مفسر أراد استخراج أسرار الكلام العربي، فيكون الدارس أمام أسس تجنبه الحكم الذاتي وتبعث فيه روح البحث العلمي المبني على الحجة دون المرية في ذلك، ويكفي الجرجاني شرفاً أن من جاؤوا بعده كالسكاكي وأضرابه من المتأخرين لم يضيفوا شيئاً ذا بال لهذا الصرح الذي أعلى أساسه في علم البلاغة جامعاً فيه بين التنظير والتطبيق، ولا شك أن للمتقدم على المتأخر فضل إذ ليس الفتق كالتقليد ولا عجب في ذلك أن يكون الجرجاني أحد أعمدة علم البيان خاصة وأنه جمع بين النحو والبلاغة في ثوب جميل.

وقد كان في مرحلة متقدمة من التأليف فجهوده "كانت جهوداً نظرية مرتبطة ارتباطاً كاملاً بالنص الأدبي".<sup>26</sup>

## 2-2 الزمخشري وإضافاته البلاغية في علمي المعاني والبيان:

### 1-2-2 إضافات الزمخشري للبلاغة العربية:

ظهرت دراسات الزمخشري من خلال كتابه 'الكشاف' الذي أبان فيه عن عمل تطبيقي منقطع النظير وقد طبق على كثير من المسائل التي أوردها الجرجاني، غير أنه أضاف لمسته الفنية والكثير من الأصول البلاغية التي لم يقف عندها الجرجاني.

فالزمخشري استفاد من التراث البلاغي الذي سبقه وخاصة من جهود عبد القاهر الجرجاني فحوّل المادة النظرية إلى عمل تحليلي استكشافي، وقد أبان على دقة في الملاحظة وقوة في البصيرة.

وهذا يعتبر الزمخشري المرحلة الثانية من مراحل الدرس البلاغي التي وليت مرحلة عبد القاهر الجرجاني خاصة مع مؤلفه "الكشاف عن غوامض التنزيل" الذي أبدع فيه

تفسيرا وبلاغة إذ نجد أن جهوده فيه "جهودا تحليلية تطبيقية تنفذ من خلال النص إلى مسنّ القواعد والأصول أو تحديدها"<sup>27</sup>.

ومعلوم أن التطبيق في الدرس البلاغي ليس بالأمر السهل إذ به تتضح قدره البلاغي على تحويل العمل النظري إلى ممارسات ميدانية ولم تظهر تلك الممارسات إلا عند الفحول من الأدباء فكان الذوق المبني على الدربة وحسن النظر وجمال الاستنباط وقوة البديهة وسرعة الملاحظة والعاطفة الجياشة عنوانا للبلاغة العربية، وقد اجتمع عند الزمخشري هذه المقومات من طبع متهيء وقريحة وقادة وذوق متمرس.

ومن أمثلة تحويل العمل النظري إلى عمل تطبيقي العمل الذي قام به في كتابه الكشف على آي القرآن فاستخرج مجموعة من درر النظم والبيان ونجده يذكر النظم بأنه "انسجام المعاني ووضوح الوشائج والصلات بينها"<sup>28</sup> ومثل لذلك بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [سورة البقرة الآية 21]

قال الزمخشري معلقا " فإذا قال: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ للاستيلاء على أقصى غايات العبادة كان أبعث على العبادة، وأشدّ إلزاما لها، وأثبت لها في النفوس، ونحوه أن تقول لعبدك: احمل خريطة الكتب، فما ملكتك يميني إلا لجرّ الأثقال، ولو قلت: لحمل خرائط الكتب لم يقع من نفسه ذلك الموقع"<sup>29</sup>.

لذا كان الزمخشري في تفسيره "ساعيا للكشف عن الجمالية من خلال التجاوب والتلاؤم في النظم، متجاوزا عمل النحوي الذي يقف عند العلاقات الاسنادية إلى جمال المعاني البلاغية. وهو ما أبدته تحليلاته لكثير من آي القرآن الكريم"<sup>30</sup>.

## 2-2-2 أثر الكشف في الدراسات البلاغية بعده:

وكما أن اضافات الزمخشري تكمن في العمل التطبيقي الذي مثلنا بنموذج له، نجد أن إضافاته تكمن في التأثير العملي على من جاء بعده فغالب من جاء بعده من البلاغيين استفادوا من منهجه، وأهم من استفاد منه السكاكي صاحب كتاب المفتاح الذي رتب مسائل هذا العلم وأخرجها مرتبة كما هي عليه اليوم.

"وإذا كان أبو يعقوب السكاكي في عمله الأكبر الذي هو تحديد مسائل علي المعاني والبيان يسير على الطريق الذي رسمه الزمخشري، فقد كان يأخذ كثيرا من قبساته في دراسة مسائل البلاغة وأصولها"<sup>31</sup>.

ومما يدل على شدة تأثير السكاكي بمنهج الجرجاني والزمخشري جمعه في كتابه المفتاح بين علم الصّرف وعلم النّحو وعليّ البيان والمعاني فهو يرى أنّ هذه الأصناف كلّ متكامل لا غنى لأحدها عن الآخر بنفس الطّريقة التي جمع بها الزّمخشري والجرجاني النّظم بعليّ النّحو والبلاغة ونجده يقول: "وأوردت علم النّحو بتمامه، وتمامه بعليّ المعاني والبيان، ولقد قضيت بتوفيق الله منهما الوطر، ولما كان تمام علم المعاني بعليّ الحد والاستدلال لم أربداً من التّسميح بهما"<sup>32</sup>.

وهو نفس المنهج الذي نهجه الزمخشري قبله إذ اعتبر أنّ علم البيان والمعاني مع علم النّحو كلّ متكامل بهم يفصح النّظم عن معانيه، ويرفع درجة الابانة والجمال في مبانيه.

ومن الذين تأثروا بالزمخشري في بعض مباحثه، ابن الأثير صاحب كتاب "المثل السائر" ومن أمثلة ذلك "حين يتكلم في الالتفات، وفي استعمال العام في النفي والخاص في الاثبات وفي التقديم والتأخير، وفي الحروف العاطفة، والجملة الفعلية والاسمية، وحذف الجمل، والتكرار، نجد في كلّ هذه الفنون أثر الزمخشري واضحا وجليا، حتى أنّه يعتمد عليه أحيانا وينقل عباراته كاملة"<sup>33</sup>. وغير ذلك من المباحث من المباحث التي أوردها ابن الأثير.

وهذا بين أن الزمخشري ودراساته البلاغية قد أثرت في دراسات البلاغيين بعده حتى ولو اختلفت مناهج الدراسة عند بعض مدارس من جاء بعده، ممّا يؤكّد أنّه فريد عصره وأعجوبة دهره في هذا الفن الذي فاق فيه أهل الفصاحة والبراعة وأعيانهم أن يأتوا بطريقة في التطبيق تماثل منهجه في الكشف.

#### الخاتمة:

ختاما لهذا المقال يمكن أن نجمل أهم ما ورد فيه وهي كما يلي:

عُرف القرن الرابع للهجرة بأنه مرحلة نضج الدرس البلاغي باعتباره أهم درجة وصناعة يحتاجها للناقد والأديب والمفسر، فالناقد حال حكمه على العمل الأدبي يجعل من البلاغة مقياساً للتفرقة بين ضروب الشعر والنثر جيده ورديئه وأن معرفة سنن العرب في الكلام من ايجاز وحذف ومبالغة وغير ذلك تجعل معيار المفاضلة متاحاً، أما الأديب فإنه لا ينتقي من الأعمال إلا جليل المعاني جميل المباني، وأما علماء التفسير فقد اهتموا بإعجاز القرآن وكيف ارتقى نظمه وتبوأ منزلة عجز العرب قاطبة أن يأتوا بنموذج منه، كما اهتم درسه باستخراج الأحكام من الآيات القرآنية فأدت المباحث البلاغية أدوارها الكاشفة عن المعاني وتأويلاتها الخفية التي لا يحسن استخراجها إلا عالم ثبت وهذا ما يؤدي إلى إصابة المراد من كلام الله وهو عين الدرس البلاغي "مطابقة الكلام لمقتضى الحال" فتستخرج الأحكام الشرعية من ذلك كله .

وبخصوص القرن الخامس للهجرة نجد أنه مرحلة الانفصال والاكتمال للدرس البلاغي وكان إمامه في ذلك شيخ البلاغيين "عبد القاهر الجرجاني" وكان عمله أن أسس لنظريتي البيان والمعاني فالأولى كان من خلال كتابه "أسرار البلاغة" والثاني كان من خلال "دلائل الإعجاز" وبه أبان عن نظريته الشهيرة 'نظرية النظم' وبها أبان عن دور النحوي في توكي المعاني واصابها.

أما القرن السادس للهجرة فقد اكتمل فيه هذا العلم على يد العلامة الزمخشري الذي حول جهود الجرجاني إلى درس تطبيقي على القرآن الكريم من خلال كتابه "الكشاف" فكان آية في الكشف عن غوامض التنزيل وأسرار التأويل بللمسة جعلت جل الدراسات بعده تستفيد من منهجه البلاغي.

## 5. الهوامش:

- <sup>1</sup> - أبوهلال العسكري، الصناعتين: الكتابة والشعر، المكتبة العنصرية - بيروت، ص2.
- <sup>2</sup> - مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، دار الفكر، ص165.
- <sup>3</sup> - أبوهلال العسكري، الصناعتين: الكتابة والشعر، المرجع السابق، ص1.
- <sup>4</sup> - مازن مبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، المرجع السابق، ص66.
- <sup>5</sup> - محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر - تونس، 1984م، ج1، ص101.

- <sup>6</sup> - ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز، تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة - محمد بن مصطفى الكتز دار الفاروق الحديثة - مصر/ القاهرة، ط1، 1423هـ-2002م ج 1، ص 114.
- <sup>7</sup> - أبو سليمان الخطابي، بيان إعجاز القرآن، مطبوع ضمن - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف - مصر، ط3، ص 27-28.
- <sup>8</sup> - أبو هلال العسكري، الصناعتين، المرجع السابق، ص 9.
- <sup>9</sup> - أبو الحسن الرماني، النكت في إعجاز القرآن، مطبوع ضمن - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف - مصر، ط3، ص 76.
- <sup>10</sup> - أبو الحسن الرماني، النكت في إعجاز القرآن، المرجع السابق، ص 76-77.
- <sup>11</sup> - الباقلائي، إعجاز القرآن، إعداد: ممدوح حسن محمد، دار الأمين، القاهرة، ط1، 1414هـ-1993م، ص 125-126.
- <sup>12</sup> - محمد محمد أبوموسى، خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط9، 1435هـ-2014م، ص 93.
- <sup>13</sup> - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني جدّة، ط3: 1992 هـ 1413م، ص 260.
- <sup>14</sup> - حمزة العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تحقيق عبد الحميد هندواي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2002م، ج1 ص 6.
- <sup>15</sup> - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، المرجع السابق، ص 34.
- <sup>16</sup> - سعيد تومي، التأويل في الفكر التراثي العربي، دراسة في الأصول، الأسس والآليات، مجلة المدونة، الجزائر، العدد السادس، مارس 2016، ص 139.
- <sup>17</sup> - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، المرجع السابق، ص 28.
- <sup>18</sup> - محمد محمد أبو موسى، مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 1431هـ-2010م، ص 34-35.
- <sup>19</sup> - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، المرجع السابق، ص 4.
- <sup>20</sup> - عبد القاهر الجرجاني، المرجع نفسه، ص 8.
- <sup>21</sup> - عبد القاهر الجرجاني، المرجع نفسه، ص 81.
- <sup>22</sup> - الأثرى = العسل، اشتارته = جنته من الخلايا، العواسل = التي تطلب العسل.
- <sup>23</sup> - دلائل الإعجاز، المرجع نفسه، ص 371.
- <sup>24</sup> - محمد محمد أبو موسى، مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 1431هـ - 2010م، مقدمة (ك).
- <sup>25</sup> - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة -، دار ابن تيمية - القاهرة، ص 260.

- <sup>26</sup>- محمد محمد أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، المرجع السابق، ص 600.
- <sup>27</sup>- محمد محمد أبو موسى، المرجع نفسه، ص 600.
- <sup>28</sup>- محمد محمد أبو موسى، المرجع نفسه، ص 241.
- <sup>29</sup>- أبو القاسم الزمخشري، تفسير الزمخشري الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407هـ، ج1/ ص 93.
- <sup>30</sup>- جميلة قوجيل، علم محاسن النظم عند جارا لله الزمخشري -الاتساق والتجاوب في بناء النص القرآني، مجلة دراسات لسانية، المجلد 4 العدد 1، مارس 2020م، ص 158-159.
- <sup>31</sup>- محمد محمد أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، المرجع السابق، ص 601.
- <sup>32</sup>- أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط2، 1407 هـ - 1987 م، ص 6.
- <sup>33</sup>- محمد محمد أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، المرجع السابق، ص 636.

\*\*\* \*\*